# البلاغة صورة للنفس و الحياة و المجتمع

عوض حسن عمر عبد الماجد

**جامعة النيلين**

**مجلة كلية الدراسات العليا**

**الرقم الدولي الموحد: 1858-6228**

**المجلد: 15 ، 2020م**
**العدد: 01**

**كلية الدراسات العليا**
**جامعة النيلين**

Graduate College Journal – NU
Vol.15 -2020, No. (1)
ISSN: 1858-6228, http://www.neelain .edu.sd

مجلة الدراسات العليا - جامعة النيلين
المجلد 15 –2020، العدد (1)
الرقم الدولي الموحد للدوريات: 1858-6228

# البلاغة صورة للنفس و الحياة و المجتمع

**عوض حسن عمر عبد الماجد**

**كلية الدراسات الاقتصادية والاجتماعية - جامعة النيلين - الخرطوم - السودان**

## المستخلص

جاءت هذه الدراسة بعنوان (البلاغة صورة للنفس والحياة والمجتمع) وهي تهدف إلى الوقوف على البلاغة وإبراز الدور الاتصالي للغة بصفة عامة واللغة العربية بصفة خاصة، ودورها كوسيلة اتصال يستطيع الفرد عبرها أن ينقل أحاسيسه من أفراح وأتراح وآمال وآلام للآخرين، فكانت الدراسة كجانب تطبيقي لدور اللغة التصويري للأنفس وحياة الناس ومجتمعاتهم، ولتحقيق هذا الهدف اتبع الباحث المنهج التحليلي في تحليل وتفسير الظواهر البلاغية، التي قادتني إلى نتائج أهمها أنَّ اللغة هي الأداة الوحيدة التي يمكن أن تكشف ما يجيش ويعتمل في النفس مفرحاً كان أو محزناً ثانياً-أنَّ اللغة تؤدي هذا الدور التصويري بطريقة مذهلة كما برهنا بعرض بعض النماذج التي أوصلتنا لمعرفة مقدرة اللغة على التصوير الفني المبدع.

## مقدمة

الحمد لله العظيم الأعظم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم والصلاة والسلام على النبي المكرم الذي أُوتي جوامع الكلم، وعلى آله وصحبه العالين الهمم، صلاةً وسلاماً نرقى بهما في الجنان أعلى القمم.الحديث عن البلاغة العربية ذو شجون؛ لأنَّها وسيلة الفهم والإفهام، وهي أعظم وسيلة من وسائل الاتصال التي يأتي عبرها تعبير الإنسان عن حاجاته، فالمعاني في ذهن صاحبها تظل ميتة وخاصة به وحده، لكن اللغة هي التي تنقل هذه المعاني والانفعالات والأحاسيس أفراحاً كانت أم أتراحاً فتبث الحياة فيها وتصور ما في نفس صاحبها ومن خلال تلك الصور يستطيع الإنسان أن يتعرف على ما يكمن في نفوس الآخرين، كما يتثنى له معرفة المجتمعات والعادات والتقاليد؛ لأننا نجد أنَّ كثيراً من المعاني ارتبطت ببيئات معينة فالبيئة هي التي تعمل على تشكيل الأفراد وقد ظهر ذلك جلياً في أشعار العرب والدليل على ذلك ما ينسب لعلي بن الجهم في مدح الخليفة وقوله:

أنْتَ كالكلبِ في حِفَاظِكَ لِلودِ  وكالتَّيسِ في قراعِكَ للخطوبِ

## أسباب اختيار الموضوع

إنَّ اللغة العربية خصها الله سبحانه وتعالى بأن تكون هي لغة القرآن الكريم والمعبرة عنه بكل فصاحة وبيان، وجعل كتابه صالح لكل زمان ومكان، لكن في زماننا هذا ظهرت بعض التيارات المتأثرة بالثقافات التي تدَّعي أنَّ هذه اللغة لا تستطيع مجاراة الواقع المعيش للتعبير عن قضايا العصر الحالي ولما كانت هذه التهم أراد الباحث أبراز القليل فقط مما يكمن في دواخل هذا البحر الذاخر من إمكانية وقدرة على التعبير عن قضايا الناس الخاصة والعامة.

## أهداف البحث

هدف الباحث من هذه الدراسة للإجابة عن سؤال دار في خلده، وهو هل حقاً البلاغة العربية دون غيرها من اللغات والثقافات الأخرى جامدة وقاصرة وعاجزة أن تعبر عن قضايانا الحالية حتى صرنا نركن لكل ما هو غربي فصرنا مستلبين فكرياً عاجزين عن إنتاج أي ثقافة حديثة حتى صرنا نفتخر بماضينا فقط ولا نسعى للإبداع. أم العيب ليس في البلاغة الغربية لكن في الأمة العربية التي هزمت في كل شيء حتى صرنا نستحي من تراثنا وحضاراتنا منبهرين بالعالم الغربي. فكانت هذه الأسئلة محور البحث.

## أهمية الموضوع

تكمن أهميته في أنه قد يكون بداية للبحث في مثل هذه المواضيع التي تعتبر من الدراسات الحديثة التي تتحدث عن الأسلوبية، وعن نظرية السياق، ونظرية مقتضى الحال وكلها تعنى بإبراز الدور الاتصالي للبلاغة العربية.

## منهج البحث

اعتمدت في هذا البحث المنهج التحليلي في تحليل وتفسير الظواهر البلاغية التي قادتني إلى ما رميت إليه.

## البلاغة صورة للنفس والحياة والمجتمع

إن الوظيفة البارزة للغة هي تحقيق الاتصال بين الأفراد، أفراد المجتمع الواحد أو أفراد المجتمعات المختلفة، وبما أن المعنى اللغوي للبلاغة هو الاتصال، والاصطلاحي مطابقة الكلام لمقتضى الحال، والحال هو حال السامع، قصدنا أن نقف عند الوظيفة الاتصالية في البلاغة العربية.

فكل معنى داخل ذهن صاحبه أو أي إحساس تحمله نفس شخص يظل خاصاً بهذا الشخص ما لم يخرجه وينقله لعقول ونفوس أخر، والوسيلة

التي تنقل هذه الأفكار والأحاسيس هي اللغة ففي تعريف نظرية المعنى عند فيتجنشين يقول: " إنَّ اللغة وظيفة تصويرية تقريرية تتجه إلى العالم الخارجي، وتحاول رسمه والتعبير عنه، وبالتالي فإن العبارات التي لا تعبر عن الواقع الخارجي أو التي لا تشير إليه، هي عبارات لا معنى لها. وعلى ذلك فالعبارات ذات المعنى يمكن أن تكون صادقة أو كاذبة. أما العبارات التي لا معنى لها فليست صادقة ولا كاذبة. وإنما هي مجرد لغو؛ لأنها لا تشير إلى أشياء الوجود الخارجي، وإنما تشير إلى تخيلات وأوهام"[1] .

وصلة هذا الحديث بموضوعنا أن البلاغة العربية تقول في هذا الموطن: " صدق الخبر مطابقته للواقع وكذبه عدمها وقيل مطابقته لاعتقاد المخبر ولو خطأ، وعدمها؛ بدليل قوله تعالى:( إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ) [2] ورد بأن المعنى لكاذبون في الشهادة، أو في تسميتها، أو في المشهود به، في زعمهم [3].

وقال الجاحظ: مطابقته (أي المعنى) مع الاعتقاد، وعدمها معه، وغيرهما ليس بصدق و لا كذب ، بدليل(أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ)[4]؛لأن المراد بالثاني غير الكذب؛ لأنَّه قسيمه وغير الصدق لأنهم لم يعتقدوه، ورد بأن المعنى (أم لم يفترِ). فعبر عنه بالجنَّة. لأن المجنون لا افتراء له[5].

وعند فيتجنشيتن في بحوثه النقدية لنظرية المعنى عند أغسطين والتي تقول: "إن معنى الكلمة هو الشيء الذي تشير إليه ولتوضيح نظرية المعنى عند أغسطين يقتبس فيتجنشيتن الفقرة التالية من كتاب "الاعترافات" حينما كان يسمي من هم أكبر مني سناً موضوعاً ما، ويتجهون تبعاً لذلك نحوه،كنت أرى ذلك، وأدرك؛ لأن الشيء إنما يسمى بذلك الصوت الذي ينطقون به عندما كانوا يقصدون الإشارة إليه"[6].

ثم يقول: "كنت استنتج ذلك من حركاتهم الجسدية التي هي اللغة الطبيعية لجميع الشعوب، مثل تغيير الوجه، وحركة العينين وبقية أجزاء الجسم، ونبرة الصوت التي تعبر عن حالتنا الذهنية في أثناء البحث عن أي شيء أو الحصول عليه أو رفضه"[7].

وهذا الجاحظ يقول: "وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ، خمس أشياء لا تنقص ولا تزيد: أولها اللفظ، ثمَّ الإشارة، ثمَّ العقد، ثمَّ الخط، ثمَّ الحال التي تسمى نصبة، والنصبة هي الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف، ولا تقصر عن تلك الدلالات ولكل واحد من هذه الخمسة صورة بائنة من صورة صاحبتها، وحلية مخالفه لحلية أختها. وهي التي تكشف لك عن أعيان المعاني في الجملة، ثمَّ عن حقائقها من التفسير، وعن أجناسها وأقدارها، وعن خاصها وعامها، وعن طبقاتها في السار والضار، مهما كان منها لغواً بهرجا، وساقطاً مطروحاً"[8].

وتتلخص نظرية المعنى في الاستخدام في أن معنى أي كلمة وعبارة يتمثل في طريقة استخدامها في سياق معين، وأن هذا الاستخدام هو الذي يحدد معنى الكلمة أو العبارة .

وبالتالي فإننا عندما نقول عن أي شخص إنه يعرف معنى كلمة ما فإننا نعني أن هذا الشخص يعرف أن استخدامات هذه الكلمة. أما كيف نتعلم هذه الاستخدامات؟ فإن ذلك سيحدد من خلال حياتنا الاجتماعية والاستعمال اليومي للغتنا العادية.

وإذا نظرنا إلى عبد القاهر الجرجاني نجده يقول تطبيقاً وتوضيحاً لما تقدم: "وها هنا شيء يجب النظر فيه، وهو أن قولك: (أنت الحبيب)، كقولنا (أنت الشجاع) تريد أنه كملت فيه الشجاعة، أم كقولنا (زيد المنطلق)، تريد أنه الذي كان منه الانطلاق الذي سمع المخاطب به. وإذا نظرنا وجدناه لا يحتمل أن يكون كقولنا: (أنت الحبيب)، لأنه يقتضي أن يكون المعنى أنه لا محبة في الدنيا إلا ما هو به حبيب، كما أن المعنى في (هو الشجاع) أنه لا شجاعة في الدنيا إلا ما تجده عنده، وما هو شجاع به، وذلك محال"[9].

كما يقول رشيد الحاج صالح في نهاية ترجمته لمقال فيتجنشتين: "لم يرفض فتجنشتين الوظيفة التقريرية للغة أو وظيفتها في تسمية الأشياء لكنه يضيف للغة وظائف عديدة للنظر إلى الكلمات التالية: (أوه..، النجدة..، لا.. بعيداً) لاشك في أنَّ القول بأنَّ لهذه الكلمات مسميات خارجية هو كلام يخرج اللغة عن طبيعتها"[10].

يقول قيتجنشتين: "إن المفارقة لن تختفي إلا حين نتخلى بطريقة جذرية عن الفكرة التي مؤداها أن اللغة تعمل بطريقة واحدة أو تخدم دائماً الغرض نفسه"[11] .

ويقول الدكتور الطاهر أحمد مكي نقلاً عن الفيلسوف الألماني ولهلم همبولدت: " الناس في تفكيرهم وإحساسهم ومشاعرهم ونظراتهم للكون مرتبطون بالعادات التي اكتسبوها خلال ممارساتهم اللغوية"[12].

---

[1] فيتجنشين. مجلة عالم الفكر. المجلد 29. العدد الرابع. إبريل. يونيو. 2001. ص225

[2] سورة المنافقون الآية 1.

الخطيب القزويني. التلخيص في علوم البلاغة.تحقيق عبد الحميد هنداوي.دار الكتب

[3]العلمية بيروت.د ت. ص9

[4] سورة سبأالآية8.

الخطيب القزويني. التلخيص. تحقيق عبد الحميد هنداوي دار الكتب العلمية بيروت. د

[5]ت .ص. 10

[6] مجلة عالم الفكر الكويت. المجلد 29. 2001م ص232

[7] المرجع نفسه. ص232

الجاحظ. البيان والتبيين . تحقيق عبد السلام هارون .مكتبة الخانجي مصر.

[8]1960م.ج1. ص76

عبد القاهر الجرجاني. دلائل الإعجاز.تحقيق محمود محمد شاكر.مطبعة دار المدني

[9]القاهرة. ص191

[10] مجلة الفكر .المجلد 29. ص258

[11] محمود زيدان. في فلسفة اللغة. د ت. ص110

[12] مجلة الهلال. يونيو 2001م. ص50

وفي اللغة توجد لوازم واختصاصات لكل مخلوق في هذا الكون فإذا استخدمت ما يخص الحيوان للإنسان مثلاً استحقرته كما يقول عبد القاهر الجرجاني: "تعود الناس أن يصفوا الشفة من لوازم الإنسان والمشفر من لوازم الحيوان وإذا خالفوا في هذه اللوازم فيما اعتادوا عليه أي نسبوا المشفر والظلف للإنسان احتقروه وأساءوا إليه"[13].

ويرتبط هذا الأمر في العادة باللغة بين الناس بما يسمى "بالسلوك" ويقرر فيتجنشتين "أن الاستخدامات اللغوية حسبها أن تكون رموزاً ووسائط تشير إلى تلك الحالات النفسية"[14]. كما يضيف وظيفة جديدة للغة، هي إقامة أسس الحضارة هذه الوظيفة لم تكن لتتحقق لولا طبيعة اللغة القائمة على تحقيق الاتصال بيت الناس. وهنا نلاحظ أن هناك وظائف تقام بناء على الوظائف الأخرى[15].

فالتبليغ والإبلاغ وطبقات التأثير في وظائف الاتصال، من خلال اللغة صورة للنفس والحياة والمجتمع والآهات والآمال والآلام . فهذا عباس محمود العقاد في وصفه فقدان الرسول- صلى الله عليه وسلم- ابنه إبراهيم، كيف كان مدققاً ومحللاً للمشهد إذ يقول: "مات الطفل ولم يبلغ السنتين، مصاب صغير إن كانت المصائب تقاس بسنوات المفقودين، ولكن المصائب في الأعزاء إنما تقاس بمبلغ عطفنا عليهم، والصغير أحوج إلى العطف من الكبير المستقل بشأنه، وإنما تقاس بمبلغ تعويلهم علينا، وتعويل الصغير على وليه أكبر من تعويل الكبير، وإنما تقاس بمبلغ الأمل فيهم، الأمل قد يطول في بداية الطريق وقد يقصر في منتصف الطريق. إنما تقاس آلام المفقودين بأعمار الفاقدين و أي مصاب أفدح من مصاب السنتين وما بعدها في الأمل الوحيد، الواصل بينها وبين الزمان ماضيه وآتيه"[16] .

وبهذا يتحدد دور النقد الأدبي "في تميز صياغة كل عمل من حيث هي في ذاتها أولاً، ومقارنتها بغيرها ثانياً"[17].

لو حاولنا أن نتتبع وظائف النقد الأدبي في العالم العربي، تلك التي تؤدي إلي وسائل الاتصال، ثم التبليغ، للاحظنا أنها تتمثل في الوظيفة الاجتماعية، أو الحياتية، أو النفسية، أو الحضارية، أو الجمالية، أو الروحية، أو أن هذه مجتمعة في "تضافر المعارف" أو النقد الثقافي، لأن في أيسر تعريفاتها التربوية: "أنها تتألف من العادات والتقاليد والمهارات والآلام والآمال والعقيدة، والهدف والطموح، من خلال وسيلة اتصال مفهومة في طرفيها بين المتفنن والمتلقي"[18].

وهذا ما عبر عنه الدكتور صلاح فضل باسم "مشهد الخطاب النقدي" ويعرفه قائلاً: "إنه يشير إلى جملة الممارسات النقدية ما يحف بها من سياقات واستراتيجيات تشمل: المرسل والمخاطبين وأوضاع النص وحالات التلقي وملابساته العديدة"[19]. والفكر النقدي كما يقول الدكتور صبري حافظ: "لا يقتصر تأثيره على مجالات تطبيقه المحدودة في الآداب والفنون. وإنما يمتد إلى تكوين العقل النقدي الخلاق القادر على التعامل بشكل نقدي حر مع كل قضايا الواقع ومشاغله. بدلاً من العقل القطيعي أو السفلي أو الذرائعي الذي يرتع في الساحة العربية في غياب العمل النقدي"[20] .

نلاحظ في المشهد البلاغي التواصلي، أن وسائله متنوعة ولا تقف عند اللفظ المنطوق. بل لا بد من مضمون معرفي، وثقافة تحيط هذا الإطار المعرفي، ولا تكفي الثقافة وحدها ولا المعرفة بذاتها إذا لم تكن تتفق مع تعبير يخدم الدال والمدلول في إشارة، أو علامة، أو سمة، تؤكد تواصل المتفنن مع المتلقي. "وليست هذه العلاقات أصول فرعية، بل هي من صميم النشاط العقلي، والحياة الاجتماعية والنفسية الفاعلة، التي تواكب النهوض الحضاري، والتقدم النقدي والأدبي واللغوي والبلاغي واللساني. بل التنامي الواعي للتراث الإنساني والفكر العالمي..الذي يحرص على المجتمع، وله هدف وغايته سعادة الناس. والعمل على تكيُّفهم، وإذابة الصلابة الاجتماعية، والسأم والملل، وإشاعة الانسجام والوئام، وتخليص الناس من أمراضهم النفسية، وتهويماتهم التي تزيد الفراغ فراغا والضجر ضجرا، واستبدال الحيوية بها، وكذلك اليقظة الفكرية، والاستئناس المفيد، والتواصل الصادق وذلك كله في خدمة الإنسان والمجتمع والبشرية التي هي من خلق الله تعالى ونعمائه"[21].

ويقول سيد قطب: "لا يتعلق النقد بالتجربة الشعورية في العمل الأدبي إلا حين تأخذ صورتها اللفظية؛ لأنَّ الوصول إليها قبل ظهورها في هذه الصورة محال، ولأن الحكم عليها لا يتأتى إلا باستعراض الصورة اللفظية التي وردت فيها، وبيان ما تنقله هذه الصورة إلينا من حقائق ومن مشاعر وهنا قيمة التعبير في العمل الأدبي"[22].

إذن العمل الأدبي قبل ميلاده لا يعتد به، لأنه لم تدب فيه الروح ليحيا، أما بعد ظهوره في صورة لفظية، تكشف لنا خبايا النفس وأحاسيسها وشعورها، ينظر فيها وإليها فإنها صورة للنفس وللحياة وللمجتمع. ويقول سيد أيضاً: "إن وظيفة التعبير الأدبي لا تنتهي عند الدلالة المعنوية للألفاظ والعبارات، بل تضاف إلى هذه الدلالة مؤثرات أخرى يكمل بها الأداء الفني، وهي جزء أصيل من التعبير الأدبي. هذه المؤثرات هي الإيقاع الموسيقي للكلمات والعبارات، والصور والظلال التي يشعها اللفظ وتشعها العبارات

---

عبد القاهر الجرجاني. أسرار البلاغة . تحقيق محمد فاضل .الكتبة العصرية بيروت
[13].الطبعة الثالثة.1421هـ-2001م ص 38

[14] ينظر مجلة عالم الفكر. ص 240

[15] مجلة عالم الفكر. ص244

[16] مقال للدكتور محمد رجب البيومي .مجلة الأزهر يونيو 2001م. ص371

[17] إبراهيم فتحي . مقال بعنوان "وظيفة النقد" في مجلة الهلال. ص92

محمد بركات حمدي أبو علي. البلاغة العربية في ضوء الأسلوبية ونظرية السياق.عمان دار
[18]وائل.الطبعة الأولى. 2003م ص43

[19] مجلة الهلال يونيو 2001م. ص98

[20] مجلة الهلال يونيو 2001م.ص106

محمد بركات حمدي أبو علي. البلاغة العربية في ضوء الأسلوبية ونظرية السياق.
[21]ص44

[22] سيد قطب. النقد الأدبي أصوله ومناهجه.دار الشروق بيروت.1415هـ-1995م. ص34

زائدة على المعنى الذهني، ثمَّ طريقة تناول الموضوع والسير فيه، أي الأسلوب الذي تعرض به التجارب، وتنسق على أساسه الكلمات والعبارات"[23].

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى على لسان أمّ مريم: فلما وضعتها قالت (فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) [24].
والله أعلم بما وضعت فالله يعلم ما في الأرحام، وامرأة عمران من المؤمنين بالله ما في ذلك شك، وعندما خاطبت الله تعالى، بالجملة الخبرية السابقة ما كانت تقصد فائدة الخبر ولا لازم الفائدة، ولكن كانت تخبر عن إحساس وشعور داخلي، لا يتصور عبر الأجهزة الحديثة التي تصور الماديات كالكاميرا، ولكن يصوره التعبير، والألفاظ، والموسيقى. فهي عندما كانت حبلى، كانت تمني نفسها بالمولود الذكر، لتنذره لخدمة بيت المقدس ولكن قدَّر الله أن تلد الأنثى، وليس الذكر كالأنثى، في خدمة بيت المقدس، لا في الحياة كلها. فالآية تصور لنا الأسى والحسرة اللتين تعتملين في نفسها فهي لم تستطع أن توفي بنذرها الذي نذرته بسبب نوع المولود.

وإذا ما ذهبنا لمثال آخر قول الله تعالى على لسان امرأة إبراهيم (عليه السلام) عندما بُشِّرَتْ بإسحق:( قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ) [25].
فهي امرأة مؤمنة، وزوجها نبي، ولكن لما وصلت سن اليأس؛ تملكها الإحساس بعدم الإنجاب، فلما تحدثت بصيغة الاستفهام كانت تصور ما يجيش بنفسها من تعجب، فهي لم تنجب في سن الإنجاب، أ فتنجب وهي عجوز والدليل على ذلك قوله تعالى: (ٮ ٮ ٮ ٮ ٮ) [26].
وانظر إلى زكريا أيضاً، عندما صوَّر لنا ما في نفسه، من دهشة، ذاكراً أسباب تلك الدهشة ومبرراتها، في قوله تعالى: (قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا) [27]
كيف السبيل إلى الغلام، والمرأة عاقر، وصار زكريا شيخاً كبيراً، كل هذا يدور في خلد ذكريا كبشر ولكن قدرة الله فوق كل هذه المبررات.
فالبلاغة تنقل ما في نفس المتحدث إن كان قاصداً أو من غير إرادته فهذا المتنبي يقول في مدح كافور[28]

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى الموتَ شَافِيًا وَحَسْبَ المَنَايَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيًّا

عجيب أن يقابل المتنبي كافوراً الإخشيدي وهو حاكم في ذلك الزمان بهذا البيت في مطلع قصيدة مدحه بها ولكن هذا ما تحمله نفس المتنبي حقاً فأباح به "كفى بك أن ترى الموت شافيا" أي بلغ بك الأمر وشدته إلى أن ما بك من ألم وحسرة لا يكاد يشفيها إلا الموت ثم قال: "حسب المنايا أن يكن أمانيا" صار الموت الذي يكرهه الناس أمنية ومطلباً، فالمتنبي لم يمدح كافور عن قناعة وذكر ذلك في قصائده التي هجاه فيها. بل كان طامعاً في الوزارة لذا ما ذكره المتنبي هي الصورة النفسية الصادقة إن قصد أو لم يقصد؛لأنَّ للمقام تأثيره في الاتصال فهذا الكلام حسن خلاب ولكن حتى وإن صور ما في نفس قائله إلا أنه خرج عن حد البلاغة بمخالفته للمقام، لأنه افتتح قصيدته أمام الأمير بهذا المطلع
وقوله أيضاً في مدح كافور:

وَمَا طَرَبِي لَمَّا رَأَيتُكَ بِدْعَةً لَقَدْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ أَرَاكَ فَأَطْرَبُ[29]

يخاطب كافور الأمير يقول إنني عندما رأيتك طربت، وليس هذا بدعاً أو غريباً كنت أرجو أن أراك فأطرب، يعني كأن الأمير من المضحكات،إنه إذا رأه ضحك وطرب كأنما هو قرد أو شيء يستجيش ضحكه أو يستثير عاطفة الضحك والسخرية، وهذا لاشك وإن خالف المقام فإنه وافق صورة نفس المتنبي وللنقاد في هذا البيت آراء فالواحدي قال: "هذا البيت يشبه الاستهزاء، فإنه يقول: طربت عند رؤيتك كما يطرب الإنسان لرؤية المضحكات"[30].
كما قال ابن جني: "لما قرأت هذا البيت على أبي الطيب قلت له: ما زدت على أن جعلت الرجل قرداً فضحك"[31]

لكن أبا الطيب –كما نعلم- هو طامع في إمارة ويرى نفسه أعلى من كافور الإخشيدي فتلك الفلتات خرجت على لسانه سواءً شعر أم لم يشعر، كأنما هي تعبير عن طموحه وأن الذي أمامه لا يلبي طموحه، وترى أن المتنبي كان صدره يغلي حقداً على كافور وعلى الأيام التي ألجأته إلى مدحه فكانت تفر من لسانه كلمات لا يستطيع احتباسها، والكلمة في حقيقتها فهي صوت النفس وصورتها وما أتى به المتنبي ما هي إلا صورة نفسه. ظهرت هذه الصورة جلياً وعندما تحول لهجائه فوصفه ببعض صفات الحيوانات التي كان يأتي بها على سبيل التعريض وهذه أبيات على سبيل المثال لا الحصر:[32]

أَرِيكَ الرِّضَى لو أَخْفَتْ النَّفْسُ خَافِيَا وَمَا أَنَا عَنْ نَفْسِي وَلَا عَنْكَ رَاضِيَـــا

أ ميناً وإخْلافاً وَغَدراً وَخِسَّـــةً وَجُبناً أ شَخْصاً لُحْتَ لِي أَمْ مُخَازِيَـــا
تَظُنُّ ابْتِسامَاتِي رَجَاءً وَغِبْطَـــةً وَمَا أَنَا إلا ضَاحِكٌ مِنْ رَجَائِيَـــا
وَتَعْجِبُنِي رِجْـلَاكَ فِي النَّعْـلِ إِنَّنِي رَأَيتُكَ ذَا نَعلٍ إذا كُنتَ حَافِيَـــا
وإنَّك لا تَدرِي أ لُونُكَ أَســـــودَ مِنْ الجَهْلِ أَمْ قَدْ صَارَ أَبْيَضَ صَافِيـاَ
وَ يُذَكِرُنِي تَخْيِيطِ كَعْبِـــكَ شَـقَـهُ وَمَشْيِكَ فِي ثَوْبٍ مِنْ الزَّيتِ عَارِيَـــا
وَلَولا فُضُولُ النَّاسِ جِئتُكَ مَـــادِحاً بِمَا كُنْتَ فِي سِرِي بِهِ لَكَ هَاجِيَـــا
فَأَصْبَحتَ مَسرُوراً بِما أَنَا مُـنْشِـدٌ وإنْ كَانَ بِالإِنْشَادِ هَجُوكَ غَالِيَـــا
فَإِنْ كُنْتَ لا خَيراً أَفَدْتَ فَـــإِنَنِي أَفَدْتُ بِلَحْظِي مَشْفَرَيكَ المَلاهِيَـــا
وَمِثْلُكَ يُؤتَى مِنْ بِلادٍ بَعِيْـــدَةٍ لِيُضحِكَ رَبَّاتِ الحَدَادِ البَوَاكِيَـــا

فهذه صورة حقيقية واضحة لنفس أبي الطيب تتفق تماماً مع الصورة السابقة وإن اختلفت الأغراض فهذه في الهجاء وتلك في المدح وكلتا

[23] سيد قطب النقد الأدبي أصوله ومناهجه. ص34
[24] سورة آل عمران الآية 36
[25] سورة هود الآية 72
[26] سورة هود الآية 73
[27] سورة مريم الآية 8.
[28] ديوان المتنبي.. ت احمد بن حسين الجعفي. دا ر بيروت للنشر. 1403هـ1983م. 441
[29] المصدر نفسه ص441
[30] عبد الرحمن البرقوقي. شرح ديوان المتنبي.بيروت دار الكتاب العربي.1980م ص97
[31] المرجع نفسه ص85
[32] ديوان المتنبي. . ص500

الصورتين توضحان نفس المتنبي الكارهة لكافور الناظرة له بأنه عبارة عن حيوان فإن شبهه في الصورة الأولى بأنه جالب للضحك أو أنه كالقرد ففي هذه ذكر أنه ذا مشفرين وهي لازمة من لوازم الحيوان.

وإذا ذهبنا إلى مثال آخر ولشاعر عربي صوَّر شعره حياته ونفسه ومجتمعه حيث كان هذا الشاعر كثير اضطراب النفس حتى سماه الدكتور فوزي عطوي (شاعر الغربة النفسية) وهو الشاعر العباسي ابن الرومي نجد أن ابن الرومي أكثر من تعكس مرأة شعره نفسه فقد عبر عن آماله وآلامه و أفرحه وأتراحه تعبيراً يكاد يجعلك كمن عاصره.

يقول الدكتور فوزي عطوي: " شهد ابن الرومي سلسلة طويلة من النكبات والمصائب التي أرهقت قواه وهدت كيانه، وأغرقته في التشاؤم والتطير، حتى كادت تصرفاته تبلغه مبلغ الجنون"[33].

ثمَّ يقول: "وإنه لحقيق بإنسان أياً كان، أن يصاب بما أصيب به شاعرنا البائس. فأي قلب ينفتح لأطايب الحياة ومسراتها، إذا فقد صاحبه أماً وأخاً وزوجةً وأبناء ثلاثة، ثم زوجة ثانية وابنين اثنين؟. وأية روح تمتليء غبطةً وانشراحاً إذا فقد صاحبها ماله وضِيّاعه واغتصب الناس ما تبقى له من أملاك وأرزاق دون أن يكون في يده ما يعينه على رد مظلمة ظالم أو إيقاف اغتصاب مغتصب؟ وأي جسدٍ يقوى على شجاعة وإقدام وقد هدَّأته المآسي، وخلخلته الكوارث، فضلاً عما أقدم عليه صاحبه من جريٍ وراء الشهوات،وسعي في إثر اللذائذ والرغائب"[34].

إذن كل هذه الأشياء كونت لنا نفساً غريبة الأطوار متنازعة لا تستقر على حال فالمثاليات التي كان شاعرنا يطمح إلى تحقيقها، والواقع المؤسف الذي يحيط به، لعل ذلك كان من أسباب هذا الاضطراب النفسي والجسماني الذي ألمَّ بشاعرنا، فجعله غريب الأطوار، غريب الآراء، غريب التصرفات.

وقد ذهب بعضهم إلى أن مزاج ابن الرومي وطبعه الغريبين يعودان إلي تأثره بالوراثة المزدوجة بحيث كان موضع تجاذب بين نفسيتين ومزاجين: مزاج أبيه الدنيوي، الواقعي النزوع ومزاج أمه الميَّالة إلى الزهد، التي ترى اللذة الروحية في الخلوة الليلية[35].

فلعل هذا التجاذب غير المتكافيء قد ترك انعكاساً سيئاً في شخصية ابن الرومي فإذا هو مادياً متطرف في ماديته من ناحية، وإذا هو من ناحية أخرى متردد متهافت القوى لا يقوى على نضال أو سعي فصور لنا ابن الرومي هذه النفس الغريبة الأطوار في هذه الأبيات:

أَذَاقَتْنِي الأَسْفَارُ مَا كَرَّه الغِنَى إِلَيَّ، وَأَغْرَانِي بِرَفْضِ المَطَالِبِ[36]

فَأَصْبَحْتُ فِي الإِثْرَاءِ أَزْهَدَ زَاهِدٍ وَإِنْ كُنْتُ فِي الإِثْرَاءِ أَرْغَبَ رَاغِبِ
حريصاً جباناً، أشتهي ثمَّ أنتهي بلحظي جناب الرزق لحظ المراقب
وَمَنْ رَاحَ ذَا حِرصٍ وجُبنٍ، فَإنَّه فقيرٌ أتاه الفقرُ من كُلِ جَانِبِ
تَنَازَعَنِي رَغَبٌ وَرَهَبٌ كِلَاهُمَا قَوِيٌّ، أَعْيَانِي اطِّلَاعُ المَغَايِبِ

كما أننا نجد في قوله:

لِمَا تُؤذِنُ به الدُنيَا مِنْ صُرُوفِها يَكُونُ بُكَاءُ المَرءِ سَاعَةَ يُولَدُ

قد ينظر البلاغيون لهذا القول على أنه حسن تعليل فقط، ولكن الناظر لهذا القول بتمعن يجده صورة لنفسٍ غارقة في التشاؤم، نفس تقود صاحبها إلي تفسير كل الظواهر بهذه النظرة القاتمة فهاهو يتنبأ لكل مولود بمستقبل مليء بالمصائب. وفي ختام هذا الجزء من هذه الدراسة يقف الباحث عند قصة أوردها ابن القارح عن التشاؤم عند ابن الرومي في رسالته إلى أبي العلاء المعري[37] قال:

قال عثمان بن الناجم: دخلت عليه (ابن الرومي) في علته التي مات فيها، وعند رأسه جام فيه ماء مثلوج، وخنجر مجرد لو ضرب به صدر خرج من ظهر، فقلت: ما هذا؟ قال: الماء أبل به حلقي، فقلما يموت إنسان إلا وهو عطشان؛ والخنجر إن زاد عليّ الألم نحرت به نفسي. ثمَّ قال: أقصُّ عليك قصتي، تستدل بها على حقيقة تلفي: أردت الانتقال من الكرخ إلى البصرة، فشاورت صديقنا أبا الفضل، وهو مشتق من الأفضال، فقال إذا جئت القنطرة، فخذ على يمنك، وهو مشتق من اليمين، واذهب إلى سكة النعيمة، وهو مشتق من النعيم، فاسكن دار المعافى، وهو مشتق من العافية. فخالفته لتعسي ونحسي، فشاورت صديقنا جعفر، وهو مشتق من الجوع والفرار، فقال: إذا جئت القنطرة، فخذ على شمالك، وهو مشتق من الشؤم، واسكن دار ابن قلابة، وهي هذه لا جرم قد انقلبت بي الدنيا، وأضرُّ ما عليَّ العصافير في هذه السدرة تصيح: سيق، سيق؛ فها أنا في السياق! ثمَّ أنشد:

أبَا عثمانَ أنتَ قَرِيعُ قَوْمِك وَجُودُكَ لِلعَشِيرَةِ دُونَ لَومِكْ[38]
تَمَتَّعْ مِنْ أَخِيْكَ، فَمَا أَرَاهُ يَرَاكَ، وَلا تَرَاه بَعْدَ يَومِكْ

وألحَّ به البول، فقلت له: البول ملحٌّ بك. فقال:

غداً يَنْقَطِعُ البَولُ وَيَأتِي الوَبِلُ والعَولُ
أَلا إِنَّ لِقَاءُ الله هَوْلٌ دُونُهُ الهَولُ

ومات في الغد. فأرجو أن يكون هذا القول توبةً له مما كان اعتقده من ذبحه نفسه. والرسول صلي عليه الصلاة والسلام يقول: "من وجأ نفسه بحديدة حشر يوم القيامة وحديدته بيده يجأ بها نفسه خالداً مخلداً في النار؛ من تردى من شاهقٍ، حشر يوم القيامة، يتردَّى على منخريه في النار

فوزي عطوي. الأعلام والفنون الأدبية. دار الفكر العربي بيروت.الطبعة الأولى1989 م.

[33] ص77

فوزي عطوي. ابن الرومي شاعر الغربة النفسية. دار الفكر العربي بيروت. الطبعة الأولى.

[34] 1989م.ص10

ينظر فوزي عطوي. ابن الرومي شاعر الغربة النفسية. دار الفكر بيروت. ط1. 1989م.

[35] ص11

[36] ديوان ابن الرومي.ت أحمد حسن بسج. دار الكتب العلمية بيروت. د ت . ص243

ينظر أبو العلاء المعري. رسالة بن القارح ورسالة الغفران. تحقيق فوزي عطوي. طبعة

[37] عام 1968م.. الشركة اللبنانية. ص33

[38] ديوان الرومي ت أحمد حسن بسج. دار الكتب العلمية.بيروت.دت. ص124

خالداً مخلداً؛ من تحسَّى سُماً، حشر يوم القيامة، وسمه بيده يتحساه خالداً مخلداً في النار"

فهذا ابن الرومي، تأتي أشعاره، التي أتينا بها مصورةً لنفسه، صورةً صادقةً حقيقةً ما كان متاحاً، لكل وسائل التصوير، من أشعة وموجات صوتية، أو فوق الصوتية، أن تصور هذه النفس الغريبة، التي استطاعت أن تصورها اللغة.

## خاتمة

جاء الحديث في هذه الورقة عن البلاغة العربية وقدرتها على تصوير المشاهد الحياتية اليومية، وتصوير النفوس والمجتمعات؛ لذلك الباحث الوقوف على البلاغة العربية كوسيلة يستطيع الفرد أن ينقل من خلالها آماله وآلامه وأفراحه وأتراحه للآخرين، ولما كانت البلاغة العربية هي التي تضفي على اللغة جمالاً وألقاً كان البحث في مجالاتها ذا قيمة؛ لأنَّها تهتم بالفهم والإفهام، والتعبير اللغوي لذا كانت الدراسة في دور البلاغة في تصوير النفس والحياة والمجتمع فتوصلت للنتائج الآتية:

1- إنَّ اللغة هي أفضل وسيلة اتصال يمكن أن تصور دواخل الأفراد.

2- لا يمكن تقدير مدى الأحاسيس والدواخل عند الأفراد فرحاً كانت أو حزناً إلا بعد التعبير عنها بالكلام.

3- -في البلاغة العربية سعة للتعبير عن الأشياء باستخداماتها الثلاثة:اللغوي، والاصطلاحي، والمجازي.

لذا نوصي بالآتي:

1-البحث في هذا المجال لإبراز سمات هذه اللغة الشريفة للدارسين المحدثين.

2-سبر أغوار هذه البلاغة وعرضها بصورة أكثر إيجابية.

3-تطوير هذه الورقة وتوسعتها أكثر لتكون رسالة ماجستير أو دكتوراة.

## قائمة المصادر والمراجع


1-القرآن الكريم.

2-إبراهيم فتحي. مقال بعنوان وظيفة النقد. مجلة الهلال.يونيو 2001م

3-أبو العلا المعري.رسالة ابن القارح ورسالة الغفران. تحقيق فوزي عطوي. عام 1968م. الشركة اللبنانية.

4-الخطيب القزويني. التلخيص في علوم البلاغة.تحقيق عبد الحميد هنداوي.دار الكتب العلمية بيروت. د ت.

5-سيد قطب. النقد أصوله ومناهجه. دار الشروق بيروت.1415هـ-1995م.

6-عبد القاهر الجرجاني. دلائل الإعجاز.تحقيق محمود محمد شاكر. مطبعة دار المدني جدة. 1413هـ-1992م.

7-عبد الرحمن البرقوقي.شرح ديوان المتنبي.بيروت دار الكتاب العربي.1980م.

8-ديوان المتنبي.أحمد بن حسين الجعفي .دار بيروت للنشر.1403هـ-1983م

9-محمود زيدان. فلسفة اللغة. دار النهضة العربية للطباعة والنشر.1985م

10-مجلة الهلال .يونيو2001م.

11-محمد رجب البيومي. مجلة الهلال.2001م.

12-فوزي عطوي:

أ-الأعلام والفنون الأدبية. دار الفكر العربي بيروت. الطبعة الأولى.1989م

ب-ابن الرومي شاعر الغربة النفسية. دار الفكر العربي بيروت. الطبعة الأولى بيروت.

13-فيتجتشين. مجلة عالم الفكر. المجلد الرابع. الكويت. 2001م

14-ديوان ابن الرومي.تحقيق أحمد حسن بسج.دار الكتب العلمية.دت.